تاريخ تطور علم مقاصد الشريعة الإسلامية بالغرب الإسلامي
أعلام ونماذج بين القرن الرابع الهجري والخامس عشر الهجري

الدكتور حسن قايدي
باحث في العلوم الشرعية وخريج المدرسة العليا للأساتذة فاس
المغرب

ملخص البحث:

يعتبر تطور علم مقاصد الشريعة الإسلامية بالغرب الإسلامي أمرا مهما وطبيعيا في سنن العلوم والمعارف، وتطور العلم عبر مراحل التاريخ، منها علم مقاصد الشريعة الذي تطور تطورا كبيرا لدى علماء الغرب الإسلامي، حيث كان هذا العلم في رحم الفقه وأصوله يتجلى في الفتاوى وقضايا القضاء والنوازل ، فظهر علم مقاصد الشريعة مع الإمام أبي عمران الفاسي بالغرب الإسلامي، وقد أطلت الكلام في شخصيته ومؤلفاته وفتاواه وغيرها؛ حيث أخذ مني جزءا كبيرا في هذا البحث، باعتباره الإمام الذي ساهم في تأسيس الإمبراطورية المرابطية أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين ، فكان أبو عمران الفاسي أول من أعمل مقاصد الشريعة من خلال الفتاوى والنوازل والسياسة وغيرها، فهو النواة الأولى لهذا العلم ثم بدأ يتطور مع القاضي عياض الذي عاصر الإمبراطورية المرابطية والموحدية في الفترة بين القرن الخامس والسادس الهجريين، فلذلك ظهرت المقاصد والمصالح من خلال الفتاوى والنوازل ،لكن قمت بحذف شخصية القاضي عياض بحكم عدد الصفحات المحددة، ثم جاء الإمام ابن رشد الحفيد فأعمل المقاصد الشرعية والمصالح أيضا من خلال الفتاوى والقضاء والنوازل الواقعة بالأمة في الفترة التاريخية من عصر الإمبراطورية المرابطية والموحدية، ثم بزغ شمس هذا العلم مع إمام المقاصد في القرن الثامن الهجري في الفترة التي حكمها المرينيون بالغرب الإسلامي وهي فترة عصيبة بالأندلس ، فكان إخراج علم المقاصد من حيز الفتاوى والمسائل على حيز التأليف فيه من حيث هو علم مستقل في مؤلف مستقل أو شبه مستقل، ثم توارى هذا العلم عدة قرون في العصر السعدي والوطاسي والديلائي إلى القرن الرابع عشر الهجري حيث نفخ الروح في هذا العلم من جديد على يد الشيخ العلامةالطاهر ابن عاشور فألف كتابا مستقلا في علم مقاصد الشريعة، ليظهر فيما بعد شيخ المقاصد في العصر الحديث ورائد الصحوة المقاصدية العلامة الدكتور أحمد الريسوني بالغرب الإسلامي.

مقدمة:

نستسقي من اشارات التاريخ ونصوصه الصريحة أن منطقة الغرب الإسلامي عرفت الإسلام السني مع الفاتحين، وبعدما تكونت المذاهب والملل والنحل كان لها أيضا سبيل إلى هذه المنطقة، ومن ثم وجدنا قبل تأسيس الدولة في المغرب أن المنطقة كانت تتعايش بها عدة مذاهب ونحل ، بعضها أسس الدولة، والبعض الآخر كان يتبناه المغاربة عن طواعية، كذلك لا يغيب عن الذهن الواقع السياسي الذي تعرفه المنطقة وهو في الأصل محاولة استقلال سياسي ومذهبي عن الدولة المشرقية، هذا الواقع السياسي يتمثل في الدولة الأموية في الأندلس، والدول الخارجية بسجلماسة والإباطية في "تاهرت" والبورغواطية "بتامسنا" والدولة الإدرسية بفاس وقبلها بوليلي وأخيرا الدولة الأغلبية بإفريقية كذلك.

وإذا كان المذهب المالكي انتشر بأعلام عظام بالغرب الإسلامي مع بزوغ الدولة الإدريسية ، فإن المذهب المالكي صار مذهبا رسميا للإمبراطورية المرابطية، كما أن أعلام مالكية كان لهم علم بمقاصد الشريعة الإسلامية، هذا العلم الذي بزغ مع بزوغ الدولة المرابطية، ولذلك يمكن تفصيل المراحل التاريخية لتطور على مقاصد الشريعة الإسلامية مع ذكر أعلامه ومدى حضور الفكر المقاصدي في الفتاوى القضاء والنوازل، والإجابة على الإشكالية الأساسية في تطور علم مقاصد الشريعة ومنهجية اختيار الأعلام وترتيبهم حسب الفترات التاريخية التي سايرت هذا التطور.

وبعد هذه المقدمة التي نستهل بها هذا البحث، يمكن وضع البحث ضمن هذه الدراسة، كما يمكن تقسيمه إلى محاور حسب ما يقتضيه البحث وهو وفق الخطة التالية: **الإجابة على الإشكالية: منهجية ترتيب الأعلام وفق تاريخ الدول المتعاقبة على حكم منطقة الغرب الإسلامي وتطور علم مقاصد الشريعة الإسلامية من النواة الأساسية ثم استقلاليته في التأليف والنضج والصحوة النهضوية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.**

تعتبر المدرسة المالكية بالمغرب الإسلامي إحدى أهم المدارس العلمية المهمة في نشر العلم في المشرق والمغرب وتعتمد هذه المدرسة في بنائها لمفهوم العالمية على أعمال وعلوم لها أثر في مجال القضاء والفتوى والعلم بمقاصد الشريعة الإسلامية الذي ستتناوله في هذا البحث بالدراسة حسب الأعلام في الفترات التاريخية، فكان من رواد هذه المدرسة وهذا العلم خاصة، علم مقاصد الشريعة الإسلامية بالغرب الإسلامي، وكان أحد أعلام المائة الرابعة، وله فضل كبير في تأسيس دولة المرابطين وهو الإمام الذي ذاع صيته وانتشر ذكره في الآفاق أبي عمران الفاسي الصنهاجي.

المحور الأول: أبو عمران المقاصدي الفاسي سيرته وجوانب من شخصيته.

تعتبر شح المعلومات المتعلقة بسيرة الإمام أبي عمران الفاسي المقاصدي (ت430هـ) من الأمور المعيقة للبحث في معرفة أهم مراحل حياته منذ نشأته، خاصة مع وجود تصحيفات في كثير مما هو مكتوب في بعض المصادر وهو الأمر الذي يحتاج للتحقيق والتدقيق، ومنه ما اختلف فيه في ترجمته مع ذكر اسم جده بين أهل التراجم في كتبهم.

يعتبر القاضي عياض أحد أقرب المصادر الذي ترجم لأبي عمران الفاسي في كتابه الموسوم ب "بترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: "هو أبو عمران الفاسي واسمه: بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي قال: وغفجوم: فخد من زناتة، وقال السمنطاري: من هوارة[1] وزاد أيضا صاحب كتاب "الصلة في تاريخ أئمة الاندلس" ابن بشكوال على قوله على جده أبي حاج فقال: واسمه بحج العفجومي الفاسي[2] هنا ذكر الضمير عائدا جده أبي حاج. والحق ماذكره الإمام البرزلي في فتاويه حيث قال: "وقال أبا عمران الصنهاجي القيرواني" فينسب أبا عمران إلى صنهاجة [3] وقد ذكر صاحب معجم البلدان الحموي اسم قبيلته التي تسمى "خفجون" حيث يقول: "خفجون" ويذكر أنها قبيلة من البربر من هوارة من أرض المغرب، ولهم أرض.

المناطق فهي أمازيغية قحة، فهي تختلف نسبة الاسم لقبائل زناتة وصنهاجة، والصحيح أنها تتفق في الأصل الأمازيغي.

الجوانب العلمية لأبي عمران الفاسي.

تتجلى شخصية أبي عمران الفاسي من جوانب متعددة لبناء شخصيته العالمة الفذة التي سجلها التاريخ بمداد الفخر في الرقعة الجغرافية لمنطقة الغرب الإسلامي ،فهي منطقة غنية وثرية بأعلامه الغيورين على دين الله تعالى وشريعته ، فكانت لهذه الجوانب المختلفة دور كبير في تربية شخصية أبي عمران المقاصدي الفاسي، فهي شخصية مقاصدية فذة مع بروز الإمبراطورية المرابطية المباركة ، محضور البعد المقاصدي لدى أبي عمران الفاسي في سياسة الأمة جلي، وهو ما سيتجلى من خلال إبراز مدى حضور الفكر المقاصدي في فكره وفقهه، ومن هذه الجوانب المكونة لشخصيته تتمثل على عدة أسس أحصيت منها ستة و لكن أكتفي بذكر أساسين فقط هما:

الأساس الأول: رحلته لطلب العلم.

مما لا شك فيه أن أبا عمران الفاسي تلقى تعليمه الاول في الكتاتيب القرآنية، فبدأ بحفظ القرآن حفظا ورسما وقراءة حتى أصبح متمكنا منه، وتلك كانت عادة أهل المغرب كما ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته[4] ويجب علينا في هذا الباب أن نبين أن أبا عمران الفاسي لم يكن من أهل الخمول والاكتفاء بما تعلم بل دفعه شغفه للعلم وتعلمه للرحيل خارج أرضه للتعلم وازدياد العلم والمعارف على يدي علماء وشيوخ لهم في العلم القدم الراسخة.

وله مؤلفات نفيسة من هذه الملفات النظائر والتعاليق على المدونة وأحاديث عالية الإسناد والفهرسة ، ويمكن في هذا البحث القول أن مؤلفات أبي عمران الفاسي متفرقة في مكتبات والعالم وهي لم تجمع بعد، وأيضا عددا من الكتب غير مرجحة الانتساب إليه، وبعض الكتب في حيز النشر والتحقيق باسمه أو باسم من الأسماء الأخرى ، والذي تقرر وتأكد أن جزءا من تراثه الفقهي منسوب إليه، ومن ثم تدعو الحاجة للباحثين والدارسين إلى التعريف بكتبه وإحياء لسيرته العلمية ووفاء لما قدم من خدمة للعلم والمعرفة ،وحضوره في بناء وتأسيس الإمبراطورية المرابطية،

وكذلك تجدر هنا الإشارة إلى تراث أبي عمران المقاصدي الفقهي يتجلى بالأساس التركيز على الفتاوى التي تتوزع بين أغلب كتب الفقه على اختلاف عناوينها، وهي تبتدئ من مؤلفات أبي عمران الفاسي منها: "النظائر" "التعاليق" ثم كتب القاضي عياض السبتي وفتاوى البرزلي ونوازل الونشرسي في معياره، وهي مصنفات ظلت وفية لآراء الفقهاء ومنها آراء أبي عمران المقاصدي الفاسي.

الأساس الثاني: الحضور المقاصدي عند أبي عمران الفاسي.

أولا: الاعتماد على الأصول المقرون في المذهب في اثبات النص إلى فهمه وتدريكه ثم تقصيده وإلحاق النوازل به ثم بدل الوسع في ذلك.

ثانيا: مراعاة فقه الواقع الحال والمقام والمخاطب.

ثالثا: قوة الإقناع وتبسيط الدليل قصد التدريك والتفهيم أو الإدراك والإفهام.

رابعا: النهج التوضيحي التفصيلي وحسن التبليغ بإفهام المتلقي وإفهامه.

خامسا: فقه التنزيل على الواقع بعد استيعاب متطلباته وخصائصه وأعرافه وتقاليده وهذا ما جعله يتطلب في بعض القضايا لبعض مواقفه وسلوكه القدوة للناس.

وهذا يتضح جليا للباحث الدارس المحلل لبعض المسائل والقضايا التي ناقشها أبو عمران الفاسي المقاصدي، ومن خلالها يتجلى قوة فقهه ودقة تأويلاته واختياراته وما رجحه في الفتوى والنوازل بناء على إعمال المقاصد والمآلات المترتبة من الفتوى أو النازلة واعتبار المصالح وذرء المفاسد. ومن المسائل التي أعمل فيها أبو عمران المقاصدي النظر المقاصدي منها:

أولا: مسألة نفي الحوز بالسكنى هل يستحق بها الساكن شيئا أولا؟ قال أبو عمران: "إن السكنى بانفرادها لا يستحق بها شيئا وإن طالت المدة إذا كان نشأت السكنى بالكراء، وإن كان مثله لا يسكن بالكراء فذلك حوز."[5]

ثانيا: مسألة في شيء هل يجوز له أن يأخذ من جنس سلمه شيئا أولا؟ قال أبو عمران: "والقياس أن يأخذ الحنطة وغيرهما؛ لأن الصفقة الأولى قد انتقضت، وإنما يحكم له برأس ماله، فله أخذ ما شاء ولكن الاحتياط ألا يفعل ذلك، لا يأخذ سمراء من محمولة، ولا محمولة من سمراء، من باب حماية الذرائع."[6]

ثالثا: مسألة من غاب عن زوجته ولم يترك لها نفقة، وكانت له ودائع، أو مال قراض، أو دين عند أحد، فإن المشهور المعمول به في المدونة[7]: أنه تقضى ديونه وينفق على زوجته من ودائعه. وحكى أبو بكر بن اللباد: لا يقضى

من ودائعه دين ولا غيره، قال الشيخ أبو عمران: "هذا هو القياس. إذ لو حضر وأنكرها ولم يكن للغرماء إليها سبيل، إذ لا يجبر على الهبة لقضاء دينه"[8].

المحور الثالث: الإمام بن رشد المقاصدي بالغرب الإسلامي

يعتبر الإمام ابن رشد الحفيد من الأئمة العظام في الغرب الإسلامي، وهو من أهل الفكر والنظر والاجتهاد، كما الفترة التي عاش فيها فترة خصبة، وهو أيضا جمع بين مرحلتين من المراحل التاريخية. مرحلة الحكم المرابطي ومرحلة الحكم الموحدي ودوره في سياسة الأمة من خلال مهمة القضاء والفتاوى وتنزيل الأحكام وفق المستجدات والوقائع، ولكن سنقوم بذكر بعض الجوانب الشخصية لابن رشد المقاصدي.

أولا: ولادته ونشأته وسيرته العلمية.

هو أبو الوليد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد المعروف بالحفيد ليميز عن جده الذي له نفس اللقب، ولد بقرطبة عاصمة العلم والعلماء سنة 520 هـ | 1126م، وقد تقلد الإمام ابن رشد القاضي عياض مناصب عديدة ورفيعة بالغرب الإسلامي منها القضاء، وقد تحدثت كتب الطبقات والرجال عنه مبينة بعض جوانب شخصيته. وقد قال عنه الإمام صاحب الديباج ابن فرحون "كان على شرفه أشد الناس تواضعا وأخفضهم جناحا ... حدث سيرته في القضاء بقرطبة، وتأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرفها في ترفيع حال ولا جمع مال، وإنما قصرها على مصالح أهل بلده خاصة ومنافع أهل الأندلس."[9]

ثانيا: الإمام ابن رشد وفكره المقاصدي.

إن الناظر في آراء واختيارات الفقهية والأصولية للإمام ابن رشد على سنن الأعلام المالكية قد تتميز وتختص بطابع مقاصدي ملحوظ، ونظر مصلحي بارز، وتقدير لمآلات الأفعال ولم يتوقف على ظواهر النصوص، بل غاص في مقاصدها الشرعية ومآلتها المتوقعة. ويمكن ابراز الفكر المقاصدي الإمام ابن رشد الحفيد من خلال كتاب بداية المجتهد الذي يعد أهم أثر فقهي افتتحه بمقدمة أصولية، وختمه برؤية مقاصدية مرتبطة بمنظومة من القيم والأخلاق والآداب في الشريعة الإسلامية. والجديد عن الإمام ابن رشد في هذا المجال هو النظرة المقاصدية والتعليل الفلسفي وربط الأفعال بأهدافها، حيث رأى أن الشريعة الإسلامية كلها جاءت لتحقيق أربعة مقاصد أساسية سماها فضائل وهي مترتبة على الترتيب المثالي: فضيلة العفة وفضيلة العدل وفضيلة الشجاعة وفضيلة السخاء. وقد ذكر الباحث أحمد غاوش عن مقاصدية الإمام ابن رشد وبين الفرق بين اشتهاره بالحكمة والفلسفة، فإن المنهج الفقهي للإمام كان يغلب عليه الميل الشديد لاعتماد الأثر والنقل والتشنيع على من استعمل القياس العقلي في حال وجود النص الشرعي قطعي الدلالة والثبوت.

المحور الرابع: الإمام الشاطبي شيخ المقاصد بالغرب الإسلامي.

شهدت الفترة من النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي تقسيما جديدا لمنطقة الغرب الإسلامي، حيث قام على أنقاض الإمبراطورية الموحدية بشمال افريقيا والأندلس، وقد صارت تونس وماإليها من نصيب الحفصيين، واستولى بنو عبد الواد على المغرب الأوسط، وانتصب المرينيون بالمغرب الأقصى، بينما استقر الأمر فيما تبقى من الأندلس المسلمة لبني الأحمر، بعدما استولى على معظم هذه الأخيرة القشتاليون والقطلاينون[10].

وكان أعظم الدول الإسلامية الجديدة هي الدولة المرينية، التي كانت تطمح إلى استعادة الإمبراطورية الموحدية بشمال إفريقيا، ثم استعادتها بالفعل في فترتين على عهد كل من أبي الحسن المريني، وابنه ابي عنان، غير أنه في معظم هذه الفترة كان المرينيون يقتصرون على حكم المغرب الأقصى.

ويهمنا أن هذه الفترة الطويلة التي حكم فيها المرينيون نحو تسعين عاما، كانت ميدانا لاستقرار كثير من أسس الحضارة الإسلامية بالغرب الإسلامي التي لازالت إلى يومنا هذا، وتجلت في وحدة التشريع أو المذهب ووحدة العقيدة، فكان المذهب المالكي هو المذهب الرسمي للدولة المرينية.

وكانت الفترة المرينية فترة زاهرة كما وصفها عبد الواحد المراكشي والدولة المرينية لم يتم لها السيطرة بعد، يقول عبد الواحد المراكشي: "ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب فيوقتنا هذا موضع العلم منه، اجتمع فيه علم القيروان وعلم قرطبة ..."[11].

في هذه الفترة الذهبية ظهر إمام المقاصد ومجدده أبو إسحاق الشاطبي (ت 790 هـ) الذي أخرج علم المقاصد من رحم الفتاوى والقضايا والنوازل مرتبطة بها، إلى إبرازه ضمن مؤلف يتضمن علم مقاصد الشريعة، فقد خصص جزءا كاملا من كتابه "الموافقات في أصول الشريعة" لعلم المقاصد ودراسة أصوله: وهو نموذج متميز الذي أصبح اليوم مرجعا أساسيا ومصباحا ضروريا للرؤية المقاصدية كيف لا وقد قال الشيخ مصطفى الزرقا فيه "نجما ساطعا يستضاء به في بحوث أصول الشريعة ومقاصدها وتوضح وتوضح به المحجة وتقام به الحجة "[12]. وسأكتفي بترجمة موجزة ومختصرة حتى لا يطول بي البحث فيما مبحوث فيه وتعريف ما هو معرف عليه.

أولا: حياته الشخصية وشيوخه وتلامذته ومؤلفاته.

هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي الشهير بالشاطبي، العلامة المؤلف المحقق النظار أحد الجباهذة، الأخبار وكان له القدم الراسخة في سائر الفنون والمعارف أحد العلماء الأثبات وأكابر الأئمة الثقات والفقيه الأصولي المفسر، له استنباطات جليلة وفوائد لطيفة وأبحاث شريفة مع الصلاح والعفة والورع واتباع السنة واجتناب البدع، أخذ عن أئمة منهم ابن الفخار لازمه وأبو عبد الله البلنسي وأبو القاسم الشريف السبتي وأبو عبد الله الشريف

التلمساني والإمام المقرئ ابن لب والخطيب ابن مرزوق وابوعلي منصور المشذالي وابو العباس القباب وأبو عبد الله الحفار وغيرهم ...[13].

وتتلمذ على يده تلامذة كثر منهم "وريث طريقته عبد الله البياني وخلق وله ابحاث شريفة مع كثير من الائمة في مشكلات المسائل كالقباب والقشتالي وابن عرفة وابن عباد أجلت عن ظهوره فيها وقوة عارضته وإمامته "[14] .

ومؤلفات الإمام الشاطبي نفيسه ذكر منها صاحب شجرة النور الزكية بقوله "له تآليف نفيسة اشتملت على تحريرات للقواعد وتحقيقات الفوائد منها شرح جليل على الخلاصة في أربعة أسفار والموافقات في الفقه جليل لا نظير له من أنبل الكتب وتأليف جليل في الحوادث والبدع في غاية الجادة سماه الاعتصام ..."[15] وغيرها من المؤلفات الجليلة، وتوفي رحمه الله سنة (790 هـ) (1388م).

ثانيا: نظره وفقهه المقاصدي.

ينطلق الإمام الشاطبي في تقسيمه المقاصد الشرعية من تعليل أحكام الشريعة، باعتبار أن الشارع أجرى التعليل الأحكام الله تعالى وقد نص على ذلك "أن وضع الشرائع إنما هو المصالح العباد في العاجل والآجل معا "[16]. كما أنه قسم المقاصد إلى قسمين قصد الشارع، وقصد المكلف ثم قسم القسم الأول إلى أربعة أنواع وهي:

النوع الأول: قصد الشارع في وضع الشريعة.

النوع الثاني: قصد الشريعة في وضع الشريعة الإفهام.

النوع الثالث: قصد الشارع في وضع الشريعة للتكليف بمقتضاها.

النوع الرابع: قصد الشارع في دخول المكلف تحت أحكام الشريعة.

وأما القسم الثاني فقد اكتفى في بحثه في مسائل مقاصدية هي مرتبة وفق منهج دقيق.

بالنظر إلى كل قسم نجده مرتبطا بالآخر من حيث الضروريات والحاجيات والتحسينات وهي تكمل الأخرى ولذلك قال الشاطبي: "كل تكملة فلها شرط وهو ألا يعود اعتبارها على الأصل بالإبطال"[17].

وقد تطرق الإمام الشاطبي إلى مقاصد المكلف وهي لها أهمية كبيرة في موضوع النظر المقاصدي، فهي المقاصد الاساسية وقد تناول قسم مقاصد المكلف في اثنتي عشر مسألة، ثم قرر الأمر البديهي في الشريعة وهو أن الاعمال بالنيات والمقاصد معتبرة في التصرفات من العبادات والعادات. كما نختم بذكر قول الشاطبي أن الشريعة من حيث مقاصدها هي نظام "أن الشارع يطلب من العبد الدخول تحت النظام والانقياد له لا لهواه"[18].

المحور الخامس: الشيخ الطاهر ابن عاشور واستقلالية علم المقاصد بالغرب الإسلامي.

قبل البدء بترجمة موجزة عن الشيخ الطاهر ابن عاشور و مشروعه المقاصدي بالغرب الإسلامي، لابد من الإشارة إلى فترة تاريخية مهمة في تاريخ الغرب الإسلامي، والتي وقع فيها تحامل من بعض وغفلة من آخرين من الباحثين ، وهي فترة ظهر وبرز فيها أعلام عظام في مختلف الفنون والمعارف ، وهي الفترة التي سقطت فيها الأندلس ودب الصراع بين الحركات السياسية بين المرينيين والوطاسين من جهة وبين الوطاسين والسعديين من جهة، ولكن تبقى هذه الفترة أيضا لها مصادرها في الفكر والأدب في العهد الوطاسي ومنها: أولا: مؤلفات أبي الحسن علي بن ميمون الغماري (ت917هـ) ثانيا: الروض الهنون في أخبار مكناسة الزيتون، لأبي عبد الله محمد بن غازي (ت919هـ) ثالثا: كناش أبي العباس أحمد زروق البرنوسي الفاسي (899هـ) وغيرهم كثير وهم قد ألفوا في مختلف الفنون والمعارف ولذلك توافد عدد كبير من الطلاب على الغرب الإسلامي من المشرق الإسلامي، ولكن هذه الفترة عموما لم تكن فترة جمود كلي ولا نهضة فقهية مقاصدية معتبرة بل فترة وقع فيها صراعات سياسية أثرت على النهضة العلمية خاصة الفكر المقاصدي، وقد برز علماء أجلاء تخرجوا من الزاوية الدلائية عاصروا الفترة السعدية وبداية الدولة العلوية.

أولا: شخصية ابن عاشور الفقيه المقاصدي بالغرب الإسلامي.

تتطور الأطوار في شخصية الشيخ الطاهر ابن عاشور منذ ولادته ونشأته فهي علمية وإدارية واخرى قضائية ودينية وتعليمية، يمتد نسب محمد بن عاشور إلى الأسر الأندلسية النازحة إلى المغرب[19] وقد أنجبت هذه المنطقة أعلاما كبارا منهم الشيخ أحمد بن عاشور ومحمد ابن عاشور ومحمد الطاهر ابن عاشور الجد ومحمد الفاضل بن عاشور وغيرهم ، وكانت ولادة الشيخ ابن عاشور سنة 1296هـ 1879م نضاحية المرسى بأحواز تونس الشمالية ، وقد كفله جده من أمه الشيخ محمد العزيز بوعتور[20] نشأ على يده تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، كما تعلم اللغة الفرنسية وهو "ما لا يتاح لكل أقرانه"[21] وله شيوخ كبار تعلم على أيديهم مثل الحبيب بن الخوجة ومحمد النخلي ومحمد صالح الشريف [22] وغيرهم كثير، وتوزعت أعماله بين مجالات أربعة منها الإدارة، مجال الإصلاح ، مجال التعليم ، ومجال التأليف وما اتصل بها من الأعمال، ولذلك كان ابن عاشور مناضلا في سبيل إصلاح هذه المؤسسة التعليمية.[23] ومؤلفات الشيخ ابن عاشور هي مؤلفات نفسية وكثيرة منها:

تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد "قضى فيه أزيد من خمسين عاما في تأليفة، فهو أبان فيه عن نضجه الفكري والمقاصدي، مقاصد الشريعة الإسلامية: ويتناول هذا الكتاب موضوع توظيف المقاصد الشرعية في فقه الشريعة.[24]حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات التنقيح على شرح تنقيح الفصول في الأصول" وهو كتاب تجمع فيه ما كان يلقيه ابن عاشور من شروح على تنقيح الفصول للقرافي. وأصول النظام

الاجتماعي في الإسلام، يبين فيه ابن عاشور في هذا الكتاب أسباب نهوض المجتمع الإسلامي. وقد يطول بي الكلام حول تآليف ابن عاشور المقاصدي، وهي مبسوطة ومعروفة يمكن الرجوع لها.

ثانيا: ابن عاشور وعلم المقاصد.

يعتبر العلامة ابن عاشور أول من تعرض لتعريف مقاصد الشريعة تعريفا واضحا وجليا ليس فيه تأويل أية إشكال، وكذلك دعوته الملحة إلى ضرورة إنشاء "علم المقاصد الشرعية" كمشروع علمي، وإذا كان الإمام الشاطبي في القرن الثامن لم يعط للمقاصد تعريفا واضحا، فإن الشيخ ابن عاشور أعطى للمقاصد الشرعية تعريفا مضبوطا، ويعرف الشيخ الطاهر ابن عاشور مقاصد الشريعة العامة بقوله: مقاصد التشريع العامة، هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغايتها العامة ، والمعاني التي لا يخلو التشريع من ملاحظتها ويدخل في هذا أيضا معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام ، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها[25] ينظر الشيخ الطاهر بن عاشور إلى ضرورة وجود استيعاب كامل الأصول المقاصدية التشريعية من أجل تجديد على أصول الفقه، واعتبر الضروري مما يميز به الواضح القطعي والظني من أدلة الأحكام الشرعية ، وهذا النظر المقاصدي لابن عاشور، وخص لعلم أصول الفقه وظيفة محددة وذلك "ببيان طرق تركيب الأدلة الفقهية وتحديد طرق الاستنباط منها"[26] ويعتبر الهدف العام لعلم مقاصد الشريعة عند الشيخ ابن عاشور في تبصير الناظرين في الشريعة في مسالك فقهها تفسيرا لنصوصها وتعليلا لأحكامها واستدلالا عليها ،ونجد الشيخ الطاهر ابن عاشور تجاوز ذكر الفتوى والقضايا مع مقاصدها الشرعية ،ولكن نجده أعمل على مشروع استقلالية علم المقاصد عن علم أصول الفقه، وتقصيد الأحكام الشرعية، سواء من جهة المعاني المقصودة من الخطاب، أن جهة المصالح المقصودة من الأحكام، وما يتعلق بالعبادات منها: الغسل والتيمم والصلاة والزكاة، ولذلك نجد ابن عاشور يقول: "من أبدع الحكم الشرعية أنها لم تنط وجوب التنظيف بحال الوسخ، لأن مقدار الحال من الوسخ، لان مقدار الحال من الوسخ يستدعي الاغتسال والتنظيف بما تختلف فيه مدارك البشر في عوائدهم وأحوالهم فنيط وجوب الغسل بحاله لا تنفك عن القوة البشرية .... حسبما تفطن لذلك الأطباء فقضيت بهذا الانضباط حكم عظيمة."[27]

المحور السادس: الدكتور الريسوني والصحوة العلمية لعلم مقاصد الشريعة الإسلامية بالغرب الإسلامي في الرابع عشر والخامس عشر الهجريين.

أولا: شخصية العلامة الدكتور أحمد الريسوني مولده ومؤلفاته.

يعتبر العلامة الدكتور أحمد الريسوني شيخ المقاصد بالغرب الإسلامي في القرن الرابع عشر الهجري والخامس عشر الهجري فهو قد أحدث صحوة علمية مقاصدية، حفزت الباحثين المعاصرين الاجتهاد والنظر والبحث في هذا العلم الجليل القدر العظيم النفع في المسائل والقضايا والوقائع قبل الكلام عن الصحوة العلمية في القرنين الرابع عشر

الهجري والخامس التي قادها العلامة أحمد الريسوني بالغرب الإسلامي، يجدر بنا المقام ذكر شخصيته التي ذاعت بالغرب الإسلامي كما ذاعت مؤلفاته ومحاضراته أيضا بالمشرق الإسلامي والغرب الإسلامي.

ولد العلامة الدكتور أحمد الريسوني بشمال المغرب الأقصى بالغرب الإسلامي، بقرية أولاد سلطان ضواحي مدينة القصر الكبير وبها نشأ وتابع دراسته وتعليمه الابتدائي والثانوي بشقيه، والتحق بجامعة القرويين وحصل فيها على الإجازة العليا إلى أن حصل على شهادة دكتوراه الدولة سنة 1992م وتولى مناصب كثيرة أكاديمية واخرى عالمية. [28]

أما مؤلفاته فقد تجاوزت كتبه المنشورة ثلاثين كتابا، وله فيها العديد من المؤلفات المهتمة بعلم مقاصد الشريعة.

كما يعتبر العلامة الريسوني رائد الحركة الصحوية لعلم مقاصد الشريعة في العصر الحديث وفي القرن الخامس عشر الهجري باعتباره نال شهرة عالمية بلغ بها رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، ومن حيث مؤلفاته الغزيرة في مجالات مختلفة خاصة علم مقاصد الشريعة الإسلامية، ومن الكتب التي ألفها العلامة أحمد الريسوني في علم المقاصد منها:

– كتاب القواعد الأساس لعلم مقاصد الشريعة – كتاب مقصد السلام في شريعة الإسلام – كتاب مقاصد المقاصد. كتاب محاضرات في مقاصد الشريعة – كتاب نظرية التقريب والتغليب – كتاب نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي. – كتاب رحلتي مع المقاصد – كتاب الجمع والتصنيف لمقاصد الشرع الحنيف – كتاب الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية – كتاب مدخل إلى مقاصد الشريعة الإسلامية – كتاب الفكر المقاصدي.

إن الناظر في شخصية العلامة أحمد الريسوني ومؤلفاته وغيرها، يقف موقفا صريحا ليقول إن العلامة الريسوني شيخ المقاصد وإمام الصحوة العلمية لعلم مقاصد الشريعة. ورائد مسيرة تطور هذا العلم تطورا مهما في القرن الخامس عشر الهجري، ومازال عطاؤه بفضل الله تعال مستمرا حفظه الله ورعاه.

من خلال البحث والدراسة والتحليل للمقاصد الشرعية في مؤلفات العلامة الريسوني، نجد يسميها "الكليات الأساسية"، وما تعرض له في قضايا الاجتهاد في المقاصد الأساسية للشريعة من خلال مؤلفاته خاصة "الفكر المقاصدي قواعده وفوائده" و"الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية" ونظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي حين نجده استعمل مصطلحات لها دلالات ومعاني في نوع من هذه المقاصد. فنجده وظف مصطلح المقاصد الإجمالية، المقاصد الكبرى، أمهات المقاصد، الأصول أمهات المصالح وكبريات مقاصد الشريعة.

وينطلق البحث المقاصدي بمنطقة الغرب الإسلامي في القرن الخامس عشر الهجري بعد نفخ فيه العلامة الريسوني روحا حية وجديدة تبعث الأمل بأن نضج علم مقاصد الشريعة الإسلامية وأصبح علما مستقلا بذاته لتوفر الأركان الثلاثة فيه، الهدف، الموضوع، المنهج وقد سار على علماء الغرب الإسلامي قديما وحديثا، فها نحن

نجد طائفة كبيرة من العلماء والباحثين بالغرب الإسلامي تهتم بهذا العلم وتحدث فيه صحوة تامة ، وقد ألفوا في هذا العلم مؤلفات كثيرة لها دور كبير اليوم في القضايا و الفتوى وهذه المؤلفات كنت قد جمعتها في هذا البحث و لكن عدد الصفحات لم يسمح لي بإضافتها فحذفتها من البحث ،وتعتبر هده الكتب المؤلفة نهضة فكرية مهمة في العصر الحديث، فقد نال منها العلامة أحمد الريسوني النصيب الأكبر في التأليف والتصنيف المقاصدي ومحاضراته العالمية في المشرق و المغرب و هناك كتب ورسائل جامعية مهمة ايضا في مجال علم مقاصد الشريعة في الغرب الإسلامي لها أثر كبير على مستوى التأليف في القرن الخامس عشر الهجري .

ونخلص إلى القول أن تطور علم مقاصد الشريعة مر عبر مراحل ثلاثة طيلة هذه القرون التي تعاقب الحكم عليها بين الإمبراطوريات في الغرب الإسلامي، ويمكن تقسيم الفترات وفق الدول المتعاقبة والأعلام المعاصرة إلى.

المرحلة الأولى: مرحلة الإمام أبي عمران الفاسي والقاضي عياض وابن رشد وابن عبد البر وغيرهم ممن عاصروا فترة الإمبراطورية المرابطية والموحدية مرحلة التأسيس والبناء.

المرحلة الثانية: مرحلة الإمام الشاطبي فترة المرينين والوطاسيين والسعديين والديلائيين وهي مرحلة التجديد والاستقلال.

المرحلة الثالثة: مرحلة ابن عاشور والريسوني فترة العلويين وهي مرحلة النضج والاستواء والصحوة والاستقلال لعلم مقاصد الشريعة الإسلامية.

الهوامش:

[1] ترتيب المدارك: القاضي عياض ج 7 ص 243.
[2] الصلة في تاريخ أئمة الأندلس: بشكوال ج 2 ص 574.
[3] فتاوى البرزلي: البرزلي ج 1 ص 221.
[4] المقدمة: ابن خلدون، ص 132.
[5] معين الحكام الأبي اسحاق ج\2 ص 627.
[6] التقييد على التهذيب لأبي الحسن الصغير. ج \ 1 ص 304.
[7] المدونة الكبرى: الإمام مالك ج \ 2 ص 194.
[8] معين الحكام لأبي إسحاق ج \ 1 ص 364.
[9] الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ابن فرحون ص 276.
[10] ورقات عن الحضارة في عصر بني مرين، لمحمد المنوني، ص 252.
[11] المعجب في تلخيص أخبار المغرب عبد الواحد المراكشي ص 504- 505.
[12] نقلا عن نظرية المقاصد الدكتور الريسوني ص 3.
[13] شجرة النور الزكية للشيخ مخلوف ج\11 ص 332.
[14] شجرة النور الزكية للشيخ مخلوف ج\11 ص 332.

[15] شجرة النور الزكية للشيخ مخلوف ج\11 ص 332.

[16] الموافقات الشاطبي ج\ 2 ص 13.

[17] الموافقات، الشاطبي ج\ 2 ص 13.

[18] الموافقات، الشاطبي ج\2 ص 168.

[19] الحلل السندسية في الأخبار التنوسية للوزير السراج ج |1 ص 77.

[20] مجلة الإسلام الحبيب بن الخوجة العدد 3 4 سنة 1979 ص 11.

[21] المقاصد والتفسير ص 13.

[22] المقاصد والتفسير ص 14.

[23] حوليات الجامعة التونسية، المنصف الشوفي، عدد- 10- 1973 ص 7.

[24] مقاصد الشريعة ابن عاشور، ص 6 4.

[25] مقاصد الشريعة ابن عاشور، ص 6.

[26] مقاصد الشريعة ابن عاشور ص 7.

[27] التحرير والتنوير، ابن عاشور ج |4، ص 65.

[28] منار الإسلام الأبحاث والدراسات بوشعيب معيب في مارس 22 2021.